لاهوت الكنيسة في فكر الآباء الرسوليين المسيحيين

أ.يوسف العايب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/قسنطينة

مقدمة:

تعتبر الكنيسة بوصفها المكان الأساسي لممارسة العبادة في الديانة المسيحية من أهم المعالم في اللاهوت والإكليروس المسيحي، ظهرت كمؤسسة دينية ممثلة للديانة المسيحية في القرن الأول ميلادي، ثم تطورت فيما بعد إلى نظام متكامل ومعقد، فرضته ظروف كثيرة من اختلاف المسيحيين أنفسهم في العقيدة، والاضطهادات المختلفة التي لحقت بهم، وتأثرهم بالأوضاع المحيطة من أحوال الرومان في سياسة أحوال دينهم، ومع مرور الوقت أصبحت الكنيسة مركز نشاط ديني واجتماعي، فازدادت قوتها وكثرت طقوسها المقدسة، وإذا رجعنا إلى ما يقره علماء الأديان وجدنا أن المسيح –عليه السلام– لم يأمر في حياته ببناء مثل هذه المؤسسة الدينية التي نشأت في ربوع العالم اليوناني بعيدا عن البيئة التي بشّر فيها المسيح برسالته[1]، ومع هذا فإن تاريخ الفكر المسيحي منذ البدايات المبكرة له حافلٌ بالإشادة بهذه المؤسسة، سواءً من حيث تكوينها، أو تنظيمها، أو الدفاع عنها والحث على التمسك والالتحام

[1] محمد عزت الطهطاوي، **الميزان في مقارنة الأديان**، ط 1، دمشق: دار القلم، 1993 ص: 202.

حولها، ومن هذه الكتابات ما تركه آباء القرن الأول والثاني المعروفون باسم الآباء الرسوليون، الذين ساهمت كتاباتهم بشكل كبير في التأسيس المبكر للكنيسة وتنظيمها وفق الشكل الموجودة عليه اليوم.

1- الكنيسة في اللاهوت المسيحي:

قبل الحديث عن الكنسية ونظام الأسقفية في الرسائل المنسوبة إلى بعض الآباء الرسوليين، فإنه من المهم أن نرى وجهة نظر المسيحيين في نشأة الكنيسة الأولى، وهل أسّس المسيح عيسى—عليه السلام- كنيسة بالمفهوم المتداول اليوم ؟ وإلى من يعود تأسيس النظام الكنسي المثلث؟ إلى المسيح —عليه السلام-؟ أم هو من ابتداع من جاء بعد المسيح —عليه السلام-؟

يقول اللاهوت المسيحي بأن الكنيسة إنما ولدت ووجدت على وجه الأرض بتجسد ابن الله، الكلمة الأزلي، ودخوله الزمن والتاريخ، وميلاد المسيح في جوٍّ من الفاقة والكدح هو إيذان للكنيسة بأن تكون بالدرجة الأولى ملاذا للفقراء والمساكين، ويقول المسيحيون أيضا بأن سِرَّ الكنيسة كان يجول في إرادة الله السرمدية التي بها يريد خلاص العالم، ولهذا أرسل الآب ابنه الأزلي الذي فيه اختار المسيحيين قبل تكوين العالم على حد قول بولس الرسول[1]: «**كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة في المسيح**»[2].

---

[1] الأب بولس إلياس اليسوعي، **خلاصة الدين المسيحي**، بيروت: دار المشرق، ط4، 1991، ص: 91 و95.

[2] أفسس: (1: 4).

كما يعتقد المسيحيون بأن المسيح أسس الكنيسة لما بدأ باختيار تلاميذه، وقد انتقى منهم اثني عشر شخصا دعاهم رسلا فرزهم عن الناس وعُنِيَ بتثقيفهم ليؤازروه ببشارة الخلاص ثم ليخلفوه في العمل: «**أنتم الذين تبعتموني في جيل التجديد، متى جلس ابن البشر على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسيا وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر**»[1] .

ويستند المسيحيون في أقوالهم هذه على ما ورد في إنجيل متى من أن المسيح أشار إلى الكنيسة بصفتها بناء على الأرض في أقواله المدونة في الأناجيل: « **ولما جاء المسيح إلى نواحي قيصرية فيليبس سأل تلاميذه قائلا من يقول أني أنا ابن الإنسان، فقالوا قوم يوحنا المعمدان، وآخرون إيليّا، وآخرون إرميا، أو واحد من الأنبياء، قال لهم وأنتم من تقولون أني أنا، فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي، فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان ابن يونا، إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم**»[2] .

فالمسيح في اللاهوت المسيحي هو الباني الحقيقي للكنيسة « **على هذه الصخرة أبني كنيستي** »، فالمسيح هو الباني الوحيد للكنيسة، حتى وإن اشتغل في واقع البناء بعض الخدام كبطرس وبولس وغيرهم، ومما تجدر ملاحظته في نص متى: «**أبني**

---

[1] متى: (19: 28).

[2] متى: (16: 13-18).

كنيستي» هو أن المسيحيين يقولون بأن هذا البناء لم يكن قد وُجد في زمن المسيح فالبناء الذي يريده المسيح هو في المستقبل[1].

وبالإضافة إلى التأسيس الأول للكنيسة المسيحية الذي يرجعه اللاهوت المسيحي إلى المسيح نفسه، يرجعون إليه أيضا النظام الإكليريكي [2] في الكنيسة، فيرى المسيحيون بأن المسيح الذي أقام الكنيسة التي تعتبر بمثابة جسده، هو الذي أقامها أيضا على نظام يرعى علاقات أعضاء هذا الجسد، كما أن المسيح في نظرهم هو أوّل من مارس المهام الكنسية المختلفة، ومنحها فيما بعد لرسله وخلفائهم من بعد، فالمسيح عندهم كان كاهنا يقدس النفوس، وراعيا يدبّرها بحكمة وديعة ونبيًّا يهديها إلى سبل الحياة[3].

كما يعتبر المسيح عندهم أول من أسس سياسة الأساقفة وتعيينهم على الكنائس، وذلك بإقامته لبطرس رئيسا على كنيسته يسوسها ويدبّرها باسمه هو، ويتضح هذا الإجراء من قوله له في قيصرية فيلبس: « **وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم، وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه**

---

[1] أندرو ملر. **مختصر تاريخ الكنيسة**، مكتبة الإخوة، شركة الطباعة المصرية، مصر، ط 4، 2003. ص: 18-19.

[2] المقصود بالنظام أو السلطة الإكليريكية في الكنيسة هو النظام أو الترتيب الكنسي للمهام والأدوار التي تتوزع على القائمين بإدارة شؤون الكنيسة الروحية والمادية.

[3] الأب بولس إلياس اليسوعي، مرجع سابق، ص: 112.

على الأرض يكون مربوطا في السماوات وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السماوات » [1].

وأخيرا يعتبر اللاهوت المسيحي بأن المسيح إنّما أسس كنيسة واحدة، ولذا فإن الكنيسة الحقيقية عندهم لا بد وأن تتوفر فيها مجموعة من المواصفات لكي تكون كنيسة للمسيح، هذه المواصفات هي: أن تكون واحدة، جامعة، مقدسة ورسولية.

واحدة: أي أن لها وحدة في الإيمان والتعليم ووحدة في التدبير والعبادة.

جامعة: أو كاثوليكية أي أنها تهدف إلى جمع البشر حول المسيح، وتوفير سبل الخلاص لهم مهما كانت أجناسهم وألوانهم.

مقدسة: لأن مؤسسها هو المسيح وهو قدوس عندهم، كما أن الأسرار التي تقام فيها مقدسة، والعاملين فيها يدعون قديسين.

رسولية: تُدعى رسولية لأنها تتصل ببطرس وسائر الرسل مؤسسيها.[2]

2- الكنيسة في فكر إكليموندس الروماني.

على الرغم من كون إكليموندس الروماني من أهم الآباء الرسوليين المسيحيين الأوائل، إلا أن الآراء التاريخية في التقليد الكنسي قد تصادمت في التعريف به.

فهناك من يقول بأنه أحد معاوني بولس، وهو الذي ورد ذكره في رسالته إلى أهل فليبي حينما قال بولس[3]: "**نعم أسألك أنت أيضا يا شريكي المخلص ساعد هاتين اللتين**

---

[1] متى: (16: 13-18).

[2] الأب بولس إلياس اليسوعي، مرجع سابق، ص: 116 إلى 118..

[3] في: 4: 3.

جاهدتا معي في الإنجيل مع إكليموندس أيضا وباقي العاملين معي الذين أسماؤهم في سفر الحياة"[1]، يرى "لاتفوت" Lightfoot أن إكليموندس الروماني هو مجرد إنسان شريف من أصل يهودي دخل المسيحية وعاصر الرسل[2].

وينسب المسيحيون إلى هذا الأب رسالتين، إحداهما تصنف ضمن الكتب المنحولة، أما الرسالة المعترف بنسبتها إلى إكليموندس الروماني فقد تضمنت ذكرا للكنيسة، وهذا بسبب ما يروى في التاريخ المسيحي بأن بعض الشبان من كورنثوس قاموا بحركة تمرد على كنيستهم، وطردوا الكثير من ممثليها، لذا قام إكليموندس بالإسراع إلى محاولة إصلاح الوضع، وبعث إليهم برسالة ضمنها الكثير من العظات ودواعي المحبة، واعتمد فيها على كثرة الاقتباس من نصوص العهد القديم والجديد على حد سواء.

وتخصص رسالة إكليموندس بمجموعة من الخصائص منها أنها وثيقة ليتورجية، وهذا من خلال ذكر التجمع المسيحي في تقديم القرابين، وذكر الرتب الكنسية، ووصف المسيح بالكاهن العلي.

وإذا رجعنا إلى أقسام الرسالة المنسوبة على إكليموندس وجدناها لا تخرج تقريبا عن الحديث عن الكنيسة المسيحية وهذا من خلال تصفح أقسام الرسالة التي جاءت كالآتي:

---

[1] يوسابيوس القيصري، **تاريخ الكنيسة**، ت: القمص مرقس داود، مطبعة القاهرة الحديثة، ص: 139.

[2] J. B. Lightfoot, **The Apostolic Fathers**, Part 1: Clement Of Rome, V: 01, Macmillan And Co And New York, London, 1890, p: 18.

- **افتتاحية:** وفيها إشارة إلى الإشادة بكنيسة روما وعظمة كرسيها، ووصفها بالاغتراب نتيجة ما كانت تعيشه المسيحية من إضطهاد على يد الإمبراطورية الرومانية وقت حكم نيرون.
- **جمال الكنيسة قبل الانقسام**[1]:

حيث يشرح في هذين الفصلين كيف كانوا يعيشون كجماعة مسيحية واحدة في كورنثوس، وكانت روح الاتفاق طاغية على الأجواء وغيرة الإصلاح هي السائدة.

- **ملامح الكنيسة بعد الانقسام**[2]:

في هذا الفصل شرح لمن خالفه الخلاف والشقاق فيما بينهم، وأن الفوضى والإضراب كله بسبب الخلاف الحاصل فيما بينهم.

- **أسباب الانقسام**[3]:

ينتقل إكليموندس في هذه الفصول إلى بيان أن أسباب الانقسام، ويجعلها اثنان، الأول هو الغيرة، والثاني هو الحسد، ويعطي أمثلة من العهد القديم والجديد وسير المسيحيين المعاصرين لهم في ذلك الوقت عن ما يمكن للغيرة والحسد أن يفعلوه داخل المجتمع الواحد، فيعطي مثالا عن ما حدث بين قابيل وهابيل، وموسى وفرعون، واستبعاد هارون ومريم خارج الخيمة، وإصابة داود بكراهية من الغرباء، وما حدث مع بولس وبطرس، وغيرها من الأمثلة.

---

[1] **رسالة إكليموندس الروماني** (من الفصل 1 إلى الفصل 2)

[2] الفصل رقم 03

[3] الفصل من 4 إلى الفصل رقم: 6

- **علاج الحسد والغيرة**[1]:

في هذه الفصول يأتي إكليموندس لعلاج أساب الانقسام المتمثلة في الغيرة والحسد، ويذكر عدة أمور تساهم في القضاء على هذه الأمراض ومما يذكره:

- التوبة والإيمان والعمل: من الفصل 7 إلى 8.
- الطاعة: من الفصل 9 إلى 12.
- التواضع: من الفصل 13 إلى 21.
- تذكر الدينونة وقيامة الأموات: من الفصل 22 إلى 29.
- الجهاد وتحمل المشاق: من الفصل 30 إلى 36.
- الخضوع لنظام الكنيسة وترتيبه: من الفصل 37 إلى 47.
- المحبة: من الفصل 48 إلى 58

- **ابتهال لله**[2]:

وهو عبارة عن مجموعة من الدعوات والتضرعات أن يصلح الإله أمور الكنيسة ويرفع عنها ما تعيشه من انقسامات.

3- الكنيسة في إنجيل الديداكي:

تعتبر الديداكية من أهم الأعمال في تاريخ الكنيسة، ولذا نجد Quasten يقول: "بين أيدينا ملخّص لتوجيهات تعطينا صورة رائعة للحياة المسيحيّة في القرن الثاني، في

---

[1] من الفصل رقم 7 إلى الفصل رقم 58.

[2] من الفصل 59 إلى الفصل رقم 61.

الحقيقة نجد هنا أقدم نظام كنسي، نموذجًا قيِّمًا لكل التجمّعات القديمة الخاصة بالنظم والقوانين الرسوليّة؛ هذا النموذج هو بداية القانون الكنسي شرقًا وغربًا"[1]

ويرى علماء المسيحية أنّ الديداكية ليست عملا واحدا لمؤلف واحد، وإنما هي تجميع حاول صاحبه –وهو مجهول– أن يربط أجزاءها فلم يستطع، فقدم لنا ثلاثة أعمال مع خاتمة هي:

القسم الأول: ويمثّل الحياة العمليّة السلوكيّة، ويمتد من الفصل الأول إلى الفصل السادس.

القسم الثاني: ويمثّل الحياة الليتورجيّة والسرائريّة، ويتكلم عن كل من المعمودية، والصوم والصلاة، والأفخريستيا، وسر الاعتراف، وغيرها، ويمتد من الفصل السابع إلى الفصل العشر الفقرة الرابعة عشر.

القسم الثالث: ويمثّل الترتيبات الكنسيّة، وفيه حديث مطول عن الإدارة الكنسيّة، من الرسل والأنبياء والمعلّمين والأساقفة والشمامسة، ويمتد من الفصل الحادي عشر إلى الفصل الخامس عشر.

وظائف الكلام:

حسب الديداكي يوجد ثلاثة أنواع من الوظائف الكلامية، هي: أوّلا وظيفة الرسل، وثانيا وظيفة الأنبياء، وثالثا وظيفة المعلمين، والمتأمل في هذه الوظائف الثلاث يجدها تعود بحذافيرها إلى الأنواع التي وضعها بولس أثناء تشييده للكنائس، وذلك على حسب ما جاء في رسالته الأولى إلى أهل كورنثيوس: « **فوضع الله أناسا في**

[1] Quasten: **Patrology**, vol. 1, p: 30

الكنيسة أوّلا رسلا وثانيا أنبياء وثالثا معلمين»[1]، والصفة المميزة لأولئك الوعاظ هي التجول الدائم، فهم دائمي التِرحال والتنقل من مدينة إلى أخرى[2].

1/ الرسل Les Apôtres:

إنّ أول مهمة أو وظيفة في الكنيسة يذكرها بولس ومن ثم الديداكي، هي مهمة الرسل، والرسول هو المبعوث، وهذا اللفظ يطلق في الكتاب المقدس ويراد به أحد المعنين:

أ/ شخص يرسل في مهمة خاصة[3]، وهذا مثل ما ورد في سفر صموئيل الأول عندما أخذ صموئيل شاول ليسمعه كلام الله: « **وإذا أتت هذه الآيات عليك فافعل ما وجدته يدك لأن الله معك** »[4]، كما ورد هذا المعنى في إنجيل يوحنا، حيث جاء فيه ما نصه: « **الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله**»[5].

---

[1] 1 كورنثيوس: (12: 28).

[2] إشراف جمال مدبك، **موسوعة الأديان في العالم**، ج:6، المسيحية، Edito Creps, INT، د. ن، بيروت، 2000، ص: 41.

[3] بطرس عبد الملك، جون الكساندر طمسن، إبراهيم مطر، **قاموس الكتاب المقدس**، ط13، دار مكتبة العائلة، القاهرة، 2000. ص: 403.

[4] 1 صموئيل: (11: 07).

[5] يوحنا: (13: 16).

ب/ ويطلق هذا الاسم بصفة خاصة على تلاميذ المسيح الاثني عشر[1]، « **ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف** »[2]، هؤلاء التلاميذ الاثني عشر هم الذين وردتهم الإشارة إليهم في إنجيل متى في قوله: « **وأما أسماء الاثني عشر رسولا فهي هذه: الأول سمعان الذي يقال له بطرس وأندراوس أخوه، يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه، فيلبس وبرثولماوس، توما ومتى العشار، ويعقوب بن حلفي ولباوس الملقب تدّاوس، سمعان القانويُّ ويهوذا الأسخريوطي الذي أسلمه** »[3].

هؤلاء الرسل يضطلعون في الكنيسة بمهمتين، الأولى تتمثل في تشييد الكنائس، والثانية في رعايتها، فالرسول حسب الديداكي هو "المبعوث من الله"[4] وهو الذي يكون دائما في مهمة ولا يتوقف في الكنائس التي يمر بها إلا يوما أو يومين للضرورة، وإذا توقف ثلاثة أيام فهو رسول كاذب[5]، كما أنه لا يطلب شيئا إلا مئونته من الخبز، أما إذا طلب النقود فهو كاذب[6].

---

[1] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 403.

[2] متى: (10: 1).

[3] متى: (10: 2).

[4] Fernand Mourret. **Histoire générale de l'église –les origines chrétiennes**-. p : 87.

[5] الديداكي: (11: 5). « **إلا أنه لا ينبغي أن يبقى أكثر من يوم واحد إلا إذا كانت هناك ضرورة لبقائه يوما آخر إذا بقي ثلاثة أيام فهو نبي كاذب** ».

[6] الديدكي: (11: 6). « **لا يجوز أن يأخذ الرسول شيئا إلا ما يكفيه من الخبز كزاد لطريقه، إذا طلب فضة فهو نبي كاذب** ».

والرسل حسب التقليد المسيحي هم الذين أقاموا الشمامسة بعد أن طغت عليهم الأعباء، فأرادوا أن يحفظوا أهمّها بتعيين معاونين معهم داخل الكنيسة[1].

2/ الأنبياء Les Prophètes:

النبي هو من يتكلم أو يكتب عما يجول في خاطره دون أن يكون ذلك الشيء من بنات أفكاره، بل هو من قوة خارجة عنه[2].

فبعد الرسل يأتي الأنبياء، وهم الذين تحدث عنهم بولس في الاجتماع المسيحي في الإصحاح الرابع من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس[3]، كما نجد أن سفر أعمال الرسل قد سمى أهم أنبياء كنيسة أنطاكية، حيث جاء فيه ما نصه: « **وكان في أنطاكية في الكنيسة أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذي يدعى نيجر ولوكيوس القيراواني ومناين الذي تربى مع هيرودس رئيس الربع وشاول**»[4].

فهؤلاء الأنبياء هم مثل أنبياء العهد القديم يتكلمون بالروح القدس ويحدثون الناس بأمور غيبية[5]، كما أن الأنبياء يختلفون عن الرسل، إذ ليس الناس هم الذين يقيمونهم، إنما الروح القدس هو الذي يلهمهم، وهم يقومون بعمل مهم داخل الكنائس[6].

---

[1] **موسوعة عالم الأديان**، مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرج، ج: 8، ص: 71-72.

[2] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 949.

[3] 1 كورنثوس: (14: 1-40).

[4] أعمال الرسل: (13: 1).

[5] Fernand Mourret. **Histoire générale de l'église –les origines chrétiennes**-. p : 88.

[6] **موسوعة عالم الأديان**، ج: 8، ص: 72.

وهناك من يفرق بين وظيفتي النبي والكاهن داخل الكنيسة بقوله بأن النبي هو الوسيط بين الله والناس، أما الكاهن فهو الوسيط بين الناس والله، والنبي صاحب رؤيا يخبر عن الأمور الغيبية، والكاهن هو صاحب تقديم القرابين والذبائح وإقامة الصلوات نيابة عن الناس إلى الإله[1].

وإذا رجعنا إلى الديداكي فإننا نجدها تضع مجموعة من المواصفات التي يتميز بها أصحاب هذه الوظيفة الكلامية عن غيرهم والتي منها[2]:

– الأنبياء يتكلمون بالروح القدس لذا لا ينبغي إيذاؤهم والتعرض إليهم: « **لا تنتقدوا ولا تجربوا نبيا يتكلم بالروح كل خطيئة تغفر إلا هذه الخطيئة** »[3].

– الأنبياء هم الكهنة الكبار: « **فلتكن باكورة عصيرك وبذرك ومواليد أبكارك وأغنامك للأنبياء لأنهم رؤساء كهنتكم** »[4].

– للأنبياء الحق في إقامة سر الأفخريستيا وأداء الشكر: « **للأنبياء الحق في أن يشكروا كما يريدون** »[5].

---

[1] ع م. جمال الدين شرقاوي، **قضايا مثيرة في الإسلام والمسيحية**، مكتبة النافذة، ط1، 2006، ص: 262.

[2] Hippolyte Hemmer. **Les Pères Apostoliques I II Doctrine des Apôtres**. Epitre de Barnabé. p : LV-LVII.

[3] الديداكي: (11: 7).

[4] الديداكي: (13: 3).

[5] الديداكي: (10: 7).

– الأنبياء المسيحيون هم امتداد للأنبياء العهد القديم: « **كل نبي مجرب حقيقي يتمِّم الأسرار الكنسية في الأرض ولا يعلم الآخرين أن يتموها لا يجوز أن يدان فدينونته من الله، لقد فعل الأنبياء الأقدمون ذلك** »[1].

– ليس النبي الذي يتكلم بالروح فقط بل النبي الذي يسلك مسلك الرب كذلك: « **ليس كل من يتكلم بالروح نبيا بل الذي يسلك مسلك الرب، المسلك يميز بين النبي الحقيقي والنبي الكاذب** »[2].

3/ المعلمين Les Docteurs:

المعلم هي الوظيفة الكنسية الثالثة التي يذكرها القديس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في النص الذي أوردناه آنفا، كما تشير الديداكي مرتين إلى وظيفة المعلم[3].

والمعلم حسب الديداكي يقوم بوظيفة التعليم كما هو واضح من اسمه، وهو في هذا قريب جدا من الأنبياء، لذا تقرن الديداكي بينهما في الذكر: « **لا تحقروهم لأنهم رجال مكرومون مع الأنبياء والمعلمين**»[4]، كما يقرن بينهما كذلك سفر أعمال الرسل: «**وكان في أنطاكية في الكنيسة أنبياء ومعلمون**»[5].

---

[1] الديداكي: (11: 11).
[2] الديداكي: (11: 7).
[3] Fernand Mourret. **Histoire générale de l'église –les origines chrétiennes**–. p : 89.
[4] الديداكي: (15: 2).
[5] سفر أعمال الرسل: (13: 1).

4: الكنيسة في فكر إغناطيوس الأنطاكي:

وإذا جئنا إلى كتابات الآباء الأوائل فإننا نجد بأن القديس إغناطيوس الأنطاكي يعتبر في الفكر المسيحي من مؤسّسي النظام الكنسي المثلث الدرجات، حيث أنه لا يوجد أحد من الآباء الأوائل من فَصَّل القول في هذه المسألة مثله، فهو أول من أشار إلى الرتب الكنسية بالتفصيل بأسمائها المعروفة اليوم، كما حدّد وظائفها بالتدقيق وذلك على ما كان سائدا في وقته، فهو يشير إلى هذه الرتب الثلاثة بأسمائها المعروفة والمتداولة اليوم، أسقف وكهنة وشمامسة، في حين لا نجد فيها ذكر للوظائف الكلامية، أو وظائف الوعظ التي جاء ذكرها في الديداكي[1].

أ- الرتب الكنسية:

مع أن هناك تقاربا بين زمن تأليف القديس إغناطيوس لرسائله وبين زمن تأليف الديداكي، إلا أننا نجد بينهما اختلافا في ذكر الرتب والمهام الكنسية، فوظائف الكلام أو الوعظ التي تحدثنا عنها قبل قليل لا نجد لها أي ذكر في رسائل القديس إغناطيوس الأنطاكي، فهو لا يشير لا إلى الأنبياء ولا إلى الرسل ولا إلى المعلمين الذين وردت الإشارة إليهم في الديداكي وفي سفر أعمال الرسل والرسالة الأولى لبولس إلى أهل كورنثوس[2].

إن رسائل القديس إغناطيوس على العكس من الديداكي وغيرها من الكتابات الأولى للآباء الكنسيين، تضع أمامنا جدولا مكتمل المعالم للنظام الكنسي ورتبه بدءً

---

1 Fernand Mourret. **Histoire générale de l'église –les origines chrétiennes**-. p : 86.

2 الديداكي: (الوصية: 11 و12 و13)، أعمال الرسل: (13: 1)، 1كورنثوس: (12: 28).

من الأسقف وما يحيط به معاونين[1]، كما أن الأسقفية التي تحدث عنها إغناطيوس تنطبق كما يبدو من رسائله على جميع الكنائس في القرون الأولى للمسيحية[2]، لذلك اعتبر إغناطيوس بطل الأسقفية الملكية، فرسائله تميز بوضوح بين الرتب الكنسية الثلاث المعروفة اليوم، والتي هي الأسقف والكهنة والشمامسة[3].

وتجدر الإشارة هنا أن النظام أو الترتيب الكنسي أكثر ما يظهر في الرسائل الست التي أرسلها إغناطيوس إلى آسيا الصغرى، أي الرسالة إلى أفسس ومغنيزيا وتراليا وفيلادلفيا وسميرنا وإلى القديس بوليكارب، وفيما يأتي تفصيل القول في هذه الرتب الثلاث التي تكلم عنها القديس إغناطيوس في رسائله.

1: **الأسقف** (**Episkopos**):

إنّ أوّل وظيفة كنسية يذكرها القديس في رسائله هي وظيفة الأسقف، وكلمة الأسقف هي لفظة معربة عن الكلمة اليونانية "**أبيسكوبوس**" "Episcopos" والكلمة مركبة من "EPI" أي على و"Scopein" أي لاحظ أو راقب[4]، ومعنى الكلمة عموما هو "مشرف" أو "رقيب" أو "الناظر"[5]، والكلمة مأخوذة من المؤسسات الإدارية اليونانية والتي تعني القيام بوظائف مدنية تتمثل في المراقبة والتفتيش، فكانت تستعمل هذه الكلمة أحيانا لدى الجماعات الوثنية كمرادف

---

[1] Johannes Quasten. **Initiation aux pères de l'église**. T : p : 78.

[2] M. l'Abbé Freppel. **Les Pères apostoliques et leur époque**. p :378.

[3] Auguste Lelong. **Les Pères Apostoliques I II Ignace d'Antioche et Polycarpe de Smyrne Epitres et Martyre de Polycarpe**. p: xix.

[4] ط. ب. مفرج، **موسوعة عالم الأديان**، ج: 8، ص: 72.

[5] Mx. L'Abbé Bernier. **Théologie portative**. p : 111.

لكلمة "إيبيميليتس" أي "مندوب" أو "وكيل" أو "مدير"[1]، ثم أنيطت هذه الوظيفة بواحد من عمال الكنيسة هو الأسقف[2].

ولم تستعمل هذه الكلمة في العهد الجديد إلا خمس مرّات في المواضع الآتي ذكرها[3]:

- **« احترزوا إذن لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه »[4].**
- **« وبولس وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيليبي مع أساقفة وشمامسة»[5].**
- **«صادقة هي الكلمة إن ابتغى احد الأسقفية فيشتهي عملا صالحا، فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة صاحيا عاقلا محتشما مضيفا للغرباء صالحا للتعليم غير مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع بالربح القبيح بل حليما غير مخاصم ولا محب للمال، يدبر بيته حسنا له أولاد في الخضوع بكل وقار، وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله، غير حديث الإيمان لئلا يتلصّف فيسقط في دينونة إبليس، ويجب أيضا أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج لئلا يسقط في تعيير وفخّ إبليس »[6].**

---

[1] شارل جينيبير، المسيحية نشأتها وتطورها، ص: 174.

[2] Fernand Mourret. **Histoire générale de l'église –les origines chrétiennes**-. p : 90.

[3] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 72-73.

[4] أعمال الرسل: (20: 28).

[5] فيليبي: (1: 1).

[6] 1 تيموثاوس: (3: 1-7).

• «...**لأنه لا بد أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله غير معجب بنفسه ولا غضوب ولا مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع في الربح القبيح**... »[1]

• « **لكنكم كنتم كخراف ضالة لكنكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها** »[2].

وإذا كان العهد الجديد بأناجيله ورسائله لا يشير إلى الأسقفية بصفة عامة إلا نادرا وباقتضاب شديد، فإن رسائل القديس إغناطيوس تحتفل بالأسقف احتفالا خاصا، فلا تكاد تخلوا رسالة من الرسائل الستّ التي أرسلها إلى كنائس آسيا الصغرى من الإشارة إلى الأسقف والإشادة به[3].

فالقديس إغناطيوس يصوّر لنا الأسقف في رسائله بصُوَرٍ عِدَّة منها:

- الأسقف هو تجسيد للكنيسة: « **قد رأيت في وحدة بوليفيوس كل كنيستكم** »[4].

- تتجسد في الأسقف كمال قوة الله: « **عليكم أن تحترموا فيه كمال قوة الله** »[5].

- الأسقف هو الممثل عن الله: « **إني لأرجوا أن تفعلوا كل شيء تحت رئاسة أسقفكم كرمز لله** »[6].

- خشية الأسقف هي من خشية الله: « **علينا أن ننظر إلى الأسقف نظرنا للسيد**»[7].

---

[1] تيطس: (1: 5-9).

[2] 1 بطرس: (2: 25).

[3] Jean Adem Moehler. **Athanase le Grand et l'Eglise De Son Temps**. p : 27.

[4] تراليا: (1: 1).

[5] مغنيزيا: (3: 1).

[6] مغنيزيا: (6: 1).

[7] أفسس: (6: 1).

- طاعة الأسقف هي طاعة لله: « **فلنحترس من مقاومة الأسقف إذا كنا نريد أن نحافظ على طاعتنا لله** »[1].

- طاعة الأسقف سبيل نحو التقديس والطهارة: « **بطاعتكم للأسقف والمتقدمين تصبحون مقدسين** »[2].

- المقبول عند الله هو الذي يوافق عليه الأسقف: « **ما يوافق عليه الأسقف هو المقبول عند الله، وكل ما يفعله يكون شريعا** »[3].

- كل الأمور تقام بعلم الأسقف:« **إن الروح يقول لا تفعلوا شيئا بدون الأسقف**»[4].

- يجب طاعة الأسقف حتى ولو كان شابا: «لا يجب أن تكون فترة شباب أسقفكم سببا لكثير من الأخذ عليه بل عليكم أن تحترموا في كمال قوة الله»[5].

2: الكهنة (Presbyteros):

إن ثاني وظيفة أسقفية يتعرض إغناطيوس للحديث عنها هي وظيفة الكهنة داخل الكنيسة، والكاهن هو خادم الدين، وهو في اصطلاح الكتاب المقدس الشخص المخصّص لتقديم الذبائح والقرابين[6]، وإقامة الصلوات نيابة عن الناس إلى الإله[1]، والكهنة هم الذين أقامهم بولس للاضطلاع بأعباء الكنائس أثناء غيابه[2].

---

[1] أفسس: (5: 3).
[2] أفسس: (2: 2).
[3] سميرنا: (8: 2).
[4] فيلادلفيا: (7: 2).
[5] مغنيزيا: (3: 1).
[6] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 791.

كما يبدو أنّ أصل نشأة درجة الكهنة داخل الكنيسة يرجع إلى نظام "**مجلس القدماء**" (**سانهيدريم**)، في المعبد اليهودي، فقد كانوا يشكلون في بادئ الأمر مجلس الجماعة الذي يدير أمورها في الواقع، ثم اقتصرت وظائفهم تدريجيا في المجال الروحي، وأصبحوا بعد قيام الأسقفية الملكية مندوبين للأسقف، أو إذا اقتضت الضرورة نوابا عنه في بعض الوظائف الخاصة بالمسائل الروحية، ولذا فهم يعتبرون أنفسهم أعلى مرتبة من "الدياكونوس" أي الشمامسة الذين كانت صلاحيتهم محدّدة في البداية بالأعمال الإدارية المادية[3].

والكهنة عند إغناطيوس يأتون في المرتبة الثانية بعد لأساقفة ويوصفون في رسائله بمجموعة من الصفات منها:

- مجلس الكهنة هو بمثابة مجلس الرسل: «والكهنة كرمز لمجلس الرسل»[4].
- الكهنة هم إكليل ثمين: « **الاتفاق مع أسقفكم ومع الإكليل الثمين المتمثل في كهنتكم وشمامستكم** »[5].
- من واجبات الكهنة تقوية الأسقف: « **على كل واحد منكم وخصوصا الكهنة أن يعزي الأسقف لمجد الآب ويسوع المسيح والرسل** »[6].

---

[1] ع. م. جمال الدين شرقاوي، **قضايا مثيرة في الإسلام والمسيحية**، ص: 262.
[2] **موسوعة عالم الأديان**، ج: 8، ص: 72.
[3] شارل جينيبير، **المسيحية نشأتها وتطورها**، ص: 181-182.
[4] مغنيزيا: (6: 1).
[5] مغنيزيا: (13: 1).
[6] تراليا: (12: 2).

- كل الأمور في الكنيسة تقام بالأسقف والكهنة: « **لا تفعلوا شيئا بدون الأسقف أو الكاهن** »[1].
- احترام الكهنة للأساقفة: «**إنّ شيوخكم القديسين يقفون من أسقفكم موقف الإجلال**»[2]

3: الشمامسة (Diakonos):

الشماس جمعها شمامسة وهي رتبة إكليروسية دون الكاهن أو القسيس، والكلمة من السريانية ومعناها خادم، والكلمة اليونانية هي: "**دياكونوس**" وجمعها: "**دياكونوي**"، والكلمة "دياكونوس" هي نفسها المترجمة "خادم" في إنجيل متى[3]: « **فلا يكون فيكم هكذا فيكم بل من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادما**»[4]، **كما أن الكلمة نفسها تستخدم للمسيح**: «**وأقول إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان من أجل صدق الله حتى يثبت مواعيد الآباء** »[5]، وتستخدم أيضا عموما لخدمة الدين: « **فمن هو بولس ومن هو أبلوس، بل خادمان آمنتم بواسطتهما وكما أعطى الرب لكل واحد** »[6].

ثم أصبحت هذه الكلمة تطلق خصّيصا على أولئك الذين تعيَّنوا لخدمة الموائد والقيام بالوظائف المادية،[7] لكن المتأمل في كتابات العهد الجديد يجد أن هذه الكلمة

---

[1] مغنيزيا: (7: 1).
[2] مغنيزيا: (3: 1).
[3] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 519.
[4] متى: (20: 26).
[5] بولس: رو: (15: 8).
[6] 1كور: (3: 5).
[7] شارل جينيبير، مرجع سابق، ص: 172-173.

لا تطلق فقط على أولئك الذين نذروا أنفسهم للخدمة المادية في الكنائس، وإنّما تطلق كذلك على أولئك الذين يختصّون بخدمات روحية داخل الكنيسة، وهذا ما يظهر من رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس، والتي جاء فيها ما نصّه: « **كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوي وقار لا ذوي لسانين غير مولعين بالخمر الكثير ولا طامعين بالربح القبيح، ولهم سر الإيمان بضمير طاهر، وإنما هؤلاء أيضا ليختبروا أولا ثم يتشمسوا إن كانوا بلا لوم** »[1]، كما كان كل من إستفانوس وفيليبس شمّاسين واعظين بإنجيل المسيح، وفي كنيسة فيليبي كان عدد ليس بقليل يشاركون الأساقفة في خدمة الكنسية: « **وبولس وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيليبي مع أساقفة وشمامسة** »[2].

هذا عن الشماس في كتابات العهد الجديد بصفة عامة، أمّا إذا رجعنا إلى نصوص القديس إغناطيوس فإننا نجد فيها إشارات متعدّدة إلى الشّماس، فالشّماس في رسائل القديس إغناطيوس هو:

- صورة للمسيح نفسه: « **على الجميع أن يحترموا الشمامسة كالمسيح يسوع** »[3]
- الشمامسة هم مؤتمنون على خدمة المسيح: « **والشمامسة الذين أحبهم كمؤتمنين على خدمة يسوع المسيح** »[4]

---

[1] 1تي (3: 8-10).

[2] في: (1: 1).

[3] تراليا: (1: 3).

[4] مغنيزيا: (6: 1).

• الشمامسة ليسوا بخدام شراب ومأكل فقط، بل هم خدام المسيح نفسه: « **علينا أيضا أن نرضي الشمامسة الذين هم خدام المسيح أيضا، ليس الشمامسة بخدمة شراب ومأكل بل خدمة كنيسة الله، يجب أن يجتنبوا كل ما يلامون عليه تجنب النار** »[1].

• الشمامسة مع الكهنة هم بمثابة الإكليل الثمين: « **الاتفاق مع أسقفكم ومع الإكليل الثمين المتمثل في كهنتكم وشمامستكم** »[2].

• كل الأمور تقام بالأسقف والكهنة والشمامسة: « **من عمل خارج إرادة الأسقف والكهنة والشماس فهو سيئ الوجدان** »[3].

• توجد إشارة واحدة إلى علاقة الشماس بالكهنة: « **حبذا لو نعمت بالشماس زوتيون، إنه يخضع للأسقف كخضوعه لنعمة الله، وللكهنة كخضوعه لناموس المسيح** »[4]

وفي الأخير نشير إلى أن القديس إغناطيوس لم يشر في رسائله إلى الشماسات، وهذا بخلاف كتابات العهد الجديد، حيث جاء في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ما نصه[5]: « **كذلك يجب أن تكون النساء ذوات وقار غير ثالبات صاحيات أمينات في كل شيء** »[6].

---

[1] تراليا: (2: 3).
[2] مغنيزيا: (13: 1).
[3] تراليا: (7: 2).
[4] مغنيزيا: (2).
[5] بطرس عبد الملك، مصدر سابق، ص: 520.
[6] 1 تي: (3: 11).

ب- التنظيم الكنسي المثلث: مما سبق يتبين لنا بوضوح أن القديس إغناطيوس تحدث عما يعرف الآن بالأسقفية الملكية بكل وضوح، كما سمّى الدرجات الثلاث في الكنيسة بأسمائها المعروفة بها اليوم، وكثيرا ما كان يقرِن إغناطيوس في رسائله في النص الواحد ما بين هذه الرتب الثلاث[1]، فيقول مثلا في رسالته إلى أهل مغنيزيا: «**إني لأرجوا أن تفعلوا كل شيء تحت رئاسة أسقفكم كرمز لله، والكهنة كرمز لمجمع الرسل، والشمامسة الذين أحبهم كمؤتمنين على خدمة يسوع المسيح**»[2]، كما يقول في رسالته إلى أهل تراليا: « **من عمل خارج إرادة الأسقف والكهنة والشماس فهو سيّئ الوجدان**»[3].

وفي نفس الرسالة يقول القديس إغناطيوس: « **على الجميع أن يحترموا الشمامسة كالمسيح يسوع، والأسقف كصورة للآب، والكهنة كمجلس الله ومصفّ الرسل** »[4].

فإغناطيوس إذن يمثل عند المسيحيين الشهادة الحية على الترتيب الكنسي الثلاثي: أسقف، كهنة، وشمامسة، وهو يميز بين هذه الرتب بوضوح كبير، كما يشير إغناطيوس أنه خارج هذا التنظيم فإن المسيحيين ليسوا إلا قطيع شكلي ومائع[5]: « **بدون هؤلاء لا توجد كنيسة** »[6]، كما أن الشيء الملاحظ هو أن إغناطيوس كما قلنا آنفا يهمل

---

[1] Monseigneur Freppel. **Les Pères de l'Eglise des trois premiers siècles**. p: 36.

[2] مغنيزيا: (6: 1).

[3] تراليا: (7: 2).

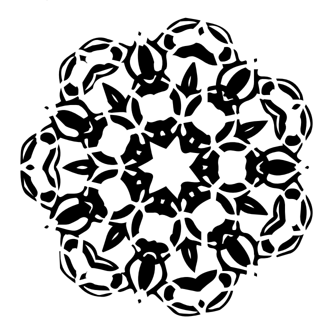
[4] تراليا: (1: 3).

[5] P. Th. Camelot. **Ignace d'Antioche**. **Lettres**. p : 34.

[6] تراليا: (3: 1).

في رسائله الإشارة إلى دور الرسل المتجولين الذين تحدث عنهم بولس في رسائله، كما ورد ذكرهم أيضا في الديداكي[1].

خاتمة: من خلال ما سبق، وعلى الرغم الزخم الكبير الذي تحفل به الكتابات المسيحية حول لاهوت الكنيسة منذ البدايات المبكرة لتأسيس هذه الديانة، إلا أن الثابت تاريخيا أن المسيح –عليه السلام– لم يؤسس في حياته كنيسة ولم يأمر أتباعه بالعبادة خارج دور العبادة التي كانت موجودة في زمانه، لأنه عليه السلام وكما هو معروف في الاعتقاد الإسلامي ما هو إلا نبي جاء ليصحح ما وقع فيه اليهود بعد موت موسى –عليه السلام–، ومع هذا كله فإن المسيحيين لا يفتئون يؤسسون فكريا ولاهوتيا لهذه المؤسسة من خلال الكتابات القديمة المنسوبة إلى بعض الآباء الأوليين، والذي غالبهم يشكك النقد الغربي الحديث في نسبة هذه الرسائل والكتابات لهم، ويعتبرها من قبيل الأبوكريفا أو الأدب المسيحي المنحول الذي وضع من أجل التأكيد على العقائد المسيحية التي تمت صياغتها لاحقا بعد القرن الثالث ميلادي.



[1] الديداكي: (الوصية: 11 و12 و13)، أعمال الرسل: (13: 1)، 1كورنثوس: (12: 28).